من أسماء المدينة وبيان دلالة الأسماء:

روى مسلم عن جابر بن سَمُرَه رضي الله عنه قال: «سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: إنَّ الله - تعالى - سَمَّى المدينَة طَابَةَ».

في الحديث استجاب تسميتها «طابة» وليس فيه أنها لا تُسَمَّى بغيره، فقد سمَّاها الله تعالى «المدينة» في مواضع من القرآن الكريم، فقال: «مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ»(١).

وسمَّاها النبي ﷺ «طيبة» كما في حديث زيد بن ثابت عند مسلم: «إنها طَيبَةً» يعنى: المدينة(٢).

قال النووي: «قال العلماء: لمدينة النبي ﷺ أسماء: المدينة وطابة وطيبة، والدَّار.

أما «الدَّار» فلأَمنِهَا والاستقرار بها.

وأمَّا «طابة وطيبة» فمن الطِّيب، وهو الرائحة الحسنة. وقيل: من الطِّيِّب، وهو الظاهر؛ لخلوصها من الشرك وطهارتها. وقيل: من طيب العيش بها.

وأمَّا «المدينة» ففيها قولان لأهل العربية:

أحدهما وبه جزم قطرب وابن فارس وغيرهما: أنها مشتقة من: (دَانَ) إذا أطاع، والدِّين: الطاعة.

والثاني: أنها مشتقة من (مَدَن بالمكان) إذا أقام به»(٣).

*****

(١) التوبة: ١٢٠.
(٢) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٤٤.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥٥/٩.

وذكر لها أهل السِّيَرِ والتواريخ أسماء كثيرة طيِّبَة..

لكنني أَخُصُّ منها «الدَّار»

ففي حديث القرآن الكريم عن الأنصار جاء قوله تعالى في سورة الحشر:

﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(١).

وفى ذكر «الدَّار» وهى «المدينة» مع ذكر الإيمان إيماءٌ إلى فضيلة المدينة، بحيث جعل تبوُّءهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان.

ولعلَّ هذا هو الذي عَنَاه الإمام مالك - رحمه الله - حين قال:

«إن المدينةُ تُبوِّئت بالإيمان والهجرة، وإنَّ غيرها من القُرى افتُتحَت بالسيف، ثُمَّ قرأ: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**... الآية﴾

ألاَ وإنَّ تسمية المدينة بـ «الدَّار» في حديث القرآن يُذكرنا بحديث القرآن الكريم عن جنَّات عَدن، وأنها عُقبَى الدَّار..

نقرأ ذلك في كثير من الآيات.

نقرأ في سورة «الرعد» عن صفات الذين أخبر الله عنهم بأنَّ لهم عُقبَى الدَّار:

﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ**

(١) الحشر: ٩.

الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1].

والمخصوص بالمدح في قوله: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ محذوفٌ لدلالة مقام الخطاب عليه، والتقدير: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار عُقْبَاهم».

وتلك لِمَن تحققت فيهم هذه الصِّلات وتلك الصفات، وذاك ما أعدَّه الله للمؤمنين والمؤمنات ووعد به: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

ونقرأ في سورة «الأنعام» قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

ونقرأ في سورة «الرعد» قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[4] ونقرأ في سورة «فاطر» قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[5].

---

(١) الرعد: ١٩ – ٢٤.
(٢) التوبة: ٧٢.
(٣) الأنعام: ١٣٥.
(٤) الرعد: ٤٢.
(٥) فاطر: ٣٤، ٣٥.

«وعاقبة الدار» كلمةٌ جرت مجرى المَثَل في خاتمة الخير بعد المشقة، تشبيها لعامل العمل بالسائر المنتَجع إذا صادف دارَ خَصْبٍ واستقر بها.

فأصل «عاقبة الدار» الدار العاقبة.

والعاقبة هي الحالة العاقبة التي تعقب، أي تجئ عقب غيرها، فيُؤذِنُ هذا اللفظ بتبدل حالٍ إلى ما هو خير، فلذلك لا تُطلق إلا على العاقبة المحمودة.

فعندما يُراد حُسْن العاقبة يأتي قوله ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ وعندما يُراد سُوء العاقبة يأتي قوله: ﴿**لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾[1].

وجملة ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾ خبرٌ عن ﴿**وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ وهو في مقابل جملة ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ للذين يوفون بعهد الله.

وفى سورة «الرعد» نرى الملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ**﴾ سلام ثابت دائم عليكم وتلك دلالة الرفع في قوله (سلامٌ) كما جاء في سورة «الزمر»: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾[2].

سبحانك ربى.. لا إله إلا أنت.

المدينة في حديث القرآن الكريم هي «الدَّار».

والجنة في حديث القرآن الكريم هي «دار المتقين».

---

(١) الرعد: ٢٥.

(٢) الزمر: ٧٣، ٧٤.

فهل بين الدَّار والدَّار ترابطٌ في المقدمات والنتائج، وهذه في الدنيا وتلك في الآخرة؟

وهل الدنيا - في حقيقتها - إلاَّ مقدمة للآخرة.

وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة.

والعبد مُطَالَب أن يأخذ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الحياة قبل الممات.. فما بعد الدنيا من دارٍ إلاَّ الجنة أو النار.

فمَنْ عرف قَدْر نفسه لم يبعها إلا بثمنها، وليس لها ثمنٌ إلاَّ الجنة، كما قال علىٌّ ﷺ: «إنه ليس لأنفسكم ثَمَنٌ إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها»

وكثيراً ما تُذكر الجنة، أو تُذكر روضةٌ من رياضها بذكر شئ من فضائل بعض الأماكن في المدينة.

ففي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي»(١).

وهل تُقَدِّم المدينة للجنَّة - وهى تنفى خَبَثَها - إلاَّ مَن طابت نفوسُهم، فطابت لهم الجنة؟!!

في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»(٢).

واخرج الموطأ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ أَنَّ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ زَارَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَيَّاشٍ الْمَخْزُومِيَّ، فَرَأَى عِنْدَهُ نَبِيذًا وَهُوَ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ أَسْلَمُ: إِنَّ هَذَا الشَّرَابَ يُحِبُّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

(١) البخاري - كتاب الجنة، حديث رقم ١١٢١، كتاب الحج، حديث رقم ١٧٥٥، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٦٥.

(٢) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٣٨، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٥٢.

فَحَمَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَيَّاشٍ قَدَحًا عَظِيمًا، فَجَاءَ بِهِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَوَضَعَهُ فِي يَدَيْهِ، فَقَرَّبَهُ عُمَرُ إِلَى فِيهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ

فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ هَذَا لَشَرَابٌ طَيِّبٌ، فَشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ رَجُلاً عَنْ يَمِينِهِ

فَلَمَّا أَدْبَرَ عَبْدُ اللَّهِ نَادَاهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: أَأَنْتَ القَائِلُ: لَمَكَّةُ خَيْرٌ مِنَ المَدِينَةِ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَقُلْتُ: هِيَ حَرَمُ اللَّهِ وَأَمْنُهُ وَفِيهَا بَيْتُهُ.

فَقَالَ عُمَرُ: لا أَقُولُ فِي بَيْتِ اللَّهِ ولا فِي حَرَمِهِ شَيْئًا.

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَأَنْتَ القَائِلُ: لَمَكَّةُ خَيْرٌ مِنَ المَدِينَةِ؟

قَالَ: فَقُلْتُ: هِيَ حَرَمُ اللَّهِ وَأَمْنُهُ وَفِيهَا بَيْتُهُ.

فَقَالَ عُمَرُ: لا أَقُولُ فِي حَرَمِ اللَّهِ ولا فِي بَيْتِهِ شَيْئًا، ثُمَّ انْصَرَفَ)[1].

*****

وقفتُ عند هذا القول من عبدالله بن عيَّاش، وتكرار سؤال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له: «أنت القائل لمكة خيرٌ من المدينة؟» وإجابة عبدالله بن عياش «هي حَرَم الله وأمنُه وفيها بيته» فلم يقُل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئاً سوى قوله مكرراً: «لا أَقُولُ فِي بَيْتِ اللَّهِ ولا فِي حَرَمِهِ شَيْئًا» لأنَّ ما أجاب به عبدالله بن عيَّاش لا يحتمل أن يُجاب بغير ما أجاب به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إقرار بأن مكة هي حَرَم الله وأمنه وفيه بيته.

ولم نستفد نحن أو غيرُنا من السؤال والإجابة، إلاَّ ما أجاب به عبدالله من خيريَّة مكة، وما أقرَّه عمر.

مع أن تكرار السؤال من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت النفس تتطلَّع معه إلى مزيد من القول في بيان الفضل لمَكَّة المُكَرَّمة أو المدينة المُنَوَّرَة التي طلب عمر نفسُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون موتُه في بلد نبيِّه أي المدينة المُنَوَّرَة.

---

(١) مالك – كتاب الجامع، حديث رقم ١٣٩٠ وإسناده صحيح.